الثقافة الهندية: تنوعها وشمولها وعالميتها(*)

محمد شميم النظامي
باحث– قسم الأدب العربي
بجامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية
حيدر آباد – الهند

مفهوم الثقافة وفعاليتها في بناء المجتمع المتحضر

إن كلمة "الثقافة" تستوعب النشاط البشري بأسره، بما فيه النشاط الفكري والذهني وفلسفة الذوق والنشاط الروحي والشعور الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي؛ لأن الثقافة منبعها ذهن البشر فهي مطمورة وراسخة الأقدام في ذهن الإنسان، وتسمو فوق جميع الاعتبارات في الحياة السياسية المتقلبة التي تخبط دائما الشعور الأخلاقي العام الساري في جسد الشعب كله، ثم إن الثقافة والدين اصطلاحان متميزان بتميزات مختلفة، فالثقافة اصطلاح جامع، ويشمل صلة المرء بجمال الطبيعة وسحرها وعلاقته ببهجة الحياة ونعيمها، وضلعه بالقوة الإبداعية ومقدرته عليها، وما يجد من لذة وطعم في الحصول على العلم والعرفان، ومن نشوة وطرب في إحراز القوة والمناعة، وملخص القول أن الثقافة عبارة عن جميع المظاهر والمشاهد التي تضعها شعوب مهذبة ومتمدنة موضع التقدير والاحترام في الحياة الدنيوية، وهناك يوجد اتزان غير مستقر بين وجهات النظر الدنيوية والدينية التي تختص بالذهن البشري، فالدين إذا ما أخلع من لباسه الثقافي سيصبح شيئا أجوف مجردا عن المعنى، وكذلك الثقافة إذا انعدم فيها هذا الأثر السامي الذي يفيض به عليها الدين، فإنها لن تسمو وترتفع إلى تلك القمة التي تتمكن فيها من تحقيق منزلتها الكاملة واحتلال مكانتها المرموقة، ثم إذا أمعنا النظر على اصطلاح الثقافة في مدلوله الواسع ومفهومه الشامل، وجدنا أن هناك تركيبا جذريا ثقافيا في الهند، وهذا التركيب الثقافي لم يكن متغلغلا في الحياة الهندية في الماضي فحسب، بل لا يزال يجري فيها حتى اليوم، رغم هتافات التفرقة ورغم سوء العلاقات الطائفية والخلافات اللغوية والمنافسات الإقليمية والمنازعات الأخرى، فهناك تركيب عنصري، ولغوي، وتجانس في الفن المعماري والبناء، تشابه في العلوم والآداب والموسيقى والرقص، وكما أن هناك اقتباس في الفلسفة أو توافق من بعض الجهات.

الهند جنة الشرق ومطلع النور المشرقي

إن الهند وحدة شاملة وانسجام لا يستهان به في التنوع بين مختلف الشعوب وعديد من القبائل، فالثقافة الهندية فسيحة الأرجاء مترامية الأطراف مربوطة بتنوع معالمها الطبيعية واختلاف أوضاعها الدينية والسياسية وتباين

مظاهرها الاجتماعية بالإضافة إلى ذلك ما يوجد من الشعور الملحوظ في تعدد اللغات وتنافر المألوفات وتعارض التقاليد وتباين الطقوس واختلاف الأعراف.

إن الطرق الثقافية كما تمثلها التقاليد التي يتمسك بها الشعب الهندي والأديان التي يعتنقها، والآداب التي جادت بها أقلام كتابها، والفنون التي أوحت بها طبيعته الفياضة، توضح لنا جليا بوادر ملموسة لهذه الوحدة الشاملة التي تتميز بها الثقافة الهندية، والتي انبرت صورتها المألوفة في أعقاب مساهمة قيمة أسدت إليها مختلف الأجناس البشرية واللغات المتعددة والآداب المتنوعة والديانات ذات المنشأ الهندي أو التي يدين بها الشعب الهندي على اختلاف أوجهها ومسالكها، وكذلك التربة الهندية التي تزخر بحياة نابضة بالروعة والجمال يسودها فكر من نوع مثالي، انتعش وترعرع عبر القرون والأجيال، وأصبحت هذه الحياة والفكر بمثابة أكبر مساهمة أسدتها الهند للعالم كله وهذا الفكر والحياة التي كانت مادة مشتركة يستلهم منها المسلمون والهنادكة والمسيحيون وأعضاء الطائفة البارسية وأفراد الطبقة السيخية على حد سواء.

كما أن من الواضح البين أن ثقافة الهند تُعد من إحدى الثقافات الموغلة في القدم استمد منها العالم واغترف من حياضها، كذلك نجد أن الفلسفات التي تبلورت على أرض الهند من فلسفات البوذية والجينية وذاع صيتها في الآفاق أخذها الناس بإقبال زائد وتأثروا بهذه النظريات على مدى موسع وقد انتشرت معتقدات هذه الفلسفات في الصين وبورما والدول المتجاورة للهند كما أن العالم أخذ أشياء كثيرة من فلسفة فيدانت مثل حرية الفكر والكلام حيث يوجد في كتب التفسير للفيدانت لفظ خاص "أبهيا" بمعنى لا خوف ولا خطر، كما أن بعض الباحثين يقولون أن نظرية الارتقاء الإنساني الجديدة التي تسمى بنظرية "دارون" فإنه يوجد في "ويد" لفظ "رت" ومعناه الارتقاء المسلسل والحياة التي لا نهاية لها والحياة التي لا تبدأ بالولادة ولا تنتهي بالموت، بل لها قوانين خاصة من قبل أن يخلق الزمان والمكان، فهي حياة مسلسلة غير منقطعة. وكما نجد نظرية أن الإنسان مظهر من مظاهر الله عز وجل، الإنسان والإله ليسا بشيئين مختلفين، بل إنهما افترقا من جسم واحد أو مادة واحدة، وهذا الذي هو موضوع البحث عند الصوفية تحت عنوان "وحدة الوجود" كما أننا نجد التشابه في الأشكال والمعابد في بعض الدول مثل ميكسيكو وبيرو وكمبوديا وغيرها من الدول وهذا يدل على أنه كانت هناك أثر بالغ وأصل جذري لثقافة الهند على العالم في العصور القديمة، ومن جهة أخرى كانت بعض الكلمات من السنسكريتية تستخدم في هذه الدول مثل أرجن وبرهما، هذا وقد يوجد تشابه ملموس في الطراز المعماري في هذه الدول.

ولا شك أن نظرية التناسخ نظرية هندية خالصة، تولدت في أذهان الهنود أول مرة في العالم، ثم انتقلت إلى أهل اليونان، ولأجل ذلك

نرى كثيرا من مؤرخي الفلسفة اليونانية يعتقدون أنها مأخوذة من الهند وفيثاغورس، وأمبدكاس وأفلاطون، كلهم أخذوها من فلسفة الهند.

وأما تأثيرات الثقافة الهندية على دول الشرق الأوسط والعالم العربي فهي تتبلور في في اللغة والثقافة العربية من ثلاث النواحي إجماليا:

الأول: كلمات هندية دخلت في العربية بسبب الاحتكاك التجاري والاقتصادي، لأن التجار العرب كانوا يحملون من الهند السلع التجارية الهندية ويحملون معها أسماءها مثل زنجبيل وكافور والفلفل والقرنفل وغيرها من أسماء النباتات والحيوانات.

الثاني: القصص الهندي، قد ترجم بعض القصص الهندي مثل "كليلة ودمنة" و"ألف ليلة وليلة" وغيرها من القصص.

الثالث: الحِكَم، إن الهنود اشتهروا بأنهم أصحاب النكت والحكم، فاستفاد الأدب العربي من حكم الهنود كما يقول ابن قتيبة: قرأت في كتاب من كتب الهند "شر المال ما لا ينفق منه"، "شر الإخوان الخاذل" و"شر السلطان من خافه البرئ"، و"شر البلاد ما ليس فيه خصب ولا أمن"، هذا وقد نجد أن أبا العلاء المعري كان يأخذ من النظريات الهندية ويعمل بها كعدم أكل اللحم والبيض. وكذلك لعبة الشطرنج جاءت من الهند وتعلمها العرب. كما اقتبسوا وأخذوا في البلاغة من أهل الهند.

انهيار الثقافة الهندية بفقد الاستقلال السياسي

وظلت الثقافة الهندية تؤثر وترسخ قدمها على أقطار العالم وتترك بصمات روعتها وو جمالها على الثقافة العالمية منذ نعومة أظفار التاريخ المدون إلى أواخر الإمبراطورية المغولية، ثم وهنت وضعفت بفقد الاستقلال السياسي واختفت وراء الأستار حينما أنشب الاستعمار البريطاني أظفار الاحتلال، فلم تكن بريطانيا تعمل لصالح البلاد وتغذية الثقافة الهندية بالقوة والنبض والحياة ولا تترك للثقافة الهندية تدفع عجلتها إلى الأمام ولا تشجع إلا انكماش علاقة الهند مع البلاد التي كانت هناك علاقة وطيدة بينها وبين الهند قبل النفوذ البريطاني، فالتبادل الثقافي والتفاهم الفلسفي بين الهند وبلاد آسيا الوسطى وبلاد آسيا الشرقية والشرق الأوسط وبلاد إفريقيا وجيرانها في آسيا الجنوبية الشرقية قد ذبل بهائه وروائه، وغاض مائه وذوى عشبه.

فقد تضاءلت العلاقات الهندية العربية في هذا العصر بحد كبير وتسرب الانحطاط في كل من الجزيرة العربية والهند مع استثبات الحكم البريطاني وزحف الاستعمار إلى الشرق الأوسط، وبالتالي تأخرت الثقافة الهندية في إعطاءها وتغذيتها للثقافة العالمية وخاصة الدول العربية، وكل من يتصدى لفحص العلاقات

الهندية العربية في هذه الفترة يتوجب عليه أن يأخذ بعين الاعتبار الخلفية الاجتماعية والسياسية والثقافية وروح العصر الحقيقي، فقد كان على العرب خلال هذه المدة أن يحاربوا شرين: مواجهة الاستعباد السياسي على يد الغرب وفي طليعتهم فرنسا وبريطانيا من جهة، ومقاومة التحدي الداخلي في مجتمع إسلامي متأخر وهذان النوعان كانا مرتبطين أحدهما بالآخر من جهة أخرى. ولم يكن وضع الهند يختلف عن ذلك كثيرا، ففي النفوذ البريطاني كان هناك يسود الاستعباد في كافة المجالات عقليا وروحيا وفكريا وسياسيا وثقافيا، ومن الناحية الدينية أيضا انحل التمسك بروح الشريعة النقية ومقتضى الدين الخالص إلى حد غرقوا في آفات العقل وما اخترعت لهم البدعة، فتشكل الشعب في شكل التخلف عقليا وفكريا إلا أنه لم تخل الهند من المصلحين واعين وعيا تاما للأسباب التي جرت بالمجتمع إلى التأخر، وفي آخر الزمان ظهر اسم الإمام محمد قاسم النانوتوي والشيخ رشيد أحمد الجنجوهي وشيخ الهند محمود حسن الديوبندي ومولانا حسين أحمد المدني ومولانا أشرف علي التهانوي وسر سيد أحمد خان ومولانا أبو الكلام آزاد وبقية زعماء السياسة مثل بندت جواهر لال نهرو ومولانا حفظ الرحمن السيوهاروي وشري شنكر وراو ديو ودكتور تارا شند وغيرهم من رجال الثقافة الهندية وقادة الفكر ومن ثم قامت فعلا بعض الحركات الإصلاحية الاجتماعية والدينية في هذه الفترة لتقاوم هذه التأخر والتخلف.

الأثر السلبي لانقسام الهند

حينما لمع بريق الحرية وتلألأ أمل الاستقلال، وفعلا نالت الهند حريتها انقسمت إلى دولتين: الهند وباكستان، الهتافات والشعارات التي كانت ترفع في سبيل مطالبة دولة مستقلة للمسلمين لم تكن إلا خيبة لآمال المسلمين وهجما على طموحاتهم وإعطاء فتات خبز كقيمة لتضحياتهم التي نتجت عن الشائعات في العالم العربي بصفة خاصة أن الهند دولة الكفر ومنبع الأصنام، والمسلمون الذين اختاروا الهند موطنا ومستقرا كأنهم آثروا البقاء في دار الكفر وهذا سيقضي على تشخصهم الديني، وحدث في تلك الآونة أن هاجر عدد هائل من المسلمين إلى باكستان تاركا وراءهم كل ما كانوا يملكون من ثروات الحياة، ولكن الذين آثروا الحياة والبقاء في الهند لم يكن عددهم قليل، فكانوا يتشكلون في صورة أكبر الأقلية، رغم أحداث القتل والعنف الواسعة التي اجتاحت البلاد. وفي خضم ما عرفت بشغب التقسيم، وهذا التقسيم والاضطرابات الطائفية شوهت مكانة الهند وما كان تتمتع به من سمو الاسم وطيب الذكر الثقافة الهندية في العالم وخاصة في البلدان العربية مما سبب في سوء التفاهم عن الهند. وعندما زار الهند سعادة السفير السيد حسين لمصر في الهند، فلم تثق

بهذا الخبر الصحف المصرية والعربية وأذاعت أنه بعث إلى باكستان سفيرا لمصر فيها.

إن القرار بعدم الهجرة إلى باكستان كان قرارا واعيا بل صعبا لجل أفراد وأسر هذه الجالية. والذين بقوا في الهند أبلوا بلاء حسنا في وجه موجات عنف وتهديدات طائفية عمت البلاد. ومع ذلك، اختار المسلمون وبشكل عام التحالف مع قوى علمانية. إلا أن التمييز والركود الاجتماعي والتهميش التعليمي المتراكم أسفر عن تخلف اقتصادي مطرد للمسلمين في كثير من أنحاء البلاد فيما هبطت نصيب المسلمين في الوظائف الحكومية بشكل متصاعد.

العلاقات الثقافية تأتي بالتفاهم العام

تضاءلت لوامع الثقافة الهندية بدافع فقدان القوة السياسية والاقتصادية جراء الاحتلال البريطاني الغاشم فتأخرت الثقافة الهندية في ضمنها الثقافة الإسلامية في فترة الحكم الإنجليزي، فساد الركود على الحياة الأدبية والثقافية والأخذ والإعطاء في مجالات الحياة المختلفة من دبلوماسية السياسة والاحتكاك في الاقتصاد والتبادل في الأدب والثقافة والعلم. وهذا ما لمسه قادة الفكر ورجال السياسة وزعماء الشعب الهندي الذين كانوا يعدون على أصابع اليد؛ ولكنهم نشطوا إلى استعادة المجد الغابر وتوجهوا إلى تأسيس مراكز الثقافة ومعاهد العلوم، وقاموا فعلا، فعاد النور الذي كان يطل في صورة ضئيلة. وبالتالي هذا الشعور ووجهة التفكير والواقع الحالي للشعب، لفت انتباه الزعماء والساسة إلى تأسيس المراكز الثقافية لتطوير العلاقات الودية وإرسال البعثات الثقافية وتنظيم اللقاءات العلمية والأدبية والثقافة الدبلوماسية ؛ لأن التعاون الثقافي ضروري من وجهة النظر الأممية وقد وهنت هذه الأواصر بفقد الاستقلال السياسي، فأصبحت روابط الهند مع الجيران ضعيفة متقطعة، وقد كانت هناك تجربة صادقة أن الروابط الثقافية تعمل في سبيل توحيد الشعوب أكثر مما يعمل الاتحاد السياسي، لأن الاتحاد السياسي قوامه النفع الذاتي بينما العلاقات الثقافية تأتي بالتفاهم العام، وأما بالنسبة للهند فالحاجة إلى هذا التفاهم أشد لما أن الشرق قد شاهد اليقظة الجادة وعمت في الشرق حركة التجدد العلمي والثقافي، تستحق أن تدرس بعناية بالغة، وفي أعقاب ما نالت الهند حريتها وكرامتها نشأت علاقات تظهر في صورة عديدة مع الدول الأوربية وأمريكا كذلك لأسباب شتى، فدعت الضرورة إلى إيجاد هذا التفاهم في شكل أوسع من ذي قبل بين بلدان الشرق وإفريقيا خاصة وأقطار أوربا عامة، فكانت ثمة داعية إلى تأسيس مجلس يؤدي دورا فعالا في إنعاش العلاقات الثقافية وتطويرها ونشر المواد الثقافية وعرضها للعالم كله، وتأسست من قبل اللجنة الهندية الإيرانية على إثر قدوم البعثة الثقافية من إيران، وكانت الخطوة سديدة إلى جهة صحيحة تجلب النفع الكثير في توطيد العلاقات الدبلوماسية؛ ولكنها كانت تختص بإيران فقط، فتشكلت دون ما

يريدون، لأن الهدف المطلوب من هذه اللجان هو تعميم العلاقة الثقافية مع جميع الأقطار على أساس الصداقة وحسن النية، وتنمية التفاهم وتدعيم السلام العالمي فالزعماء وجدوا في تأسيس "المجلس الهندي للعلاقات الثقافية" على نموذج السالف الذكر – أعني به "اللجنة الهندية الإيرانية" – بغيتهم وغايتهم.

وعصارة القول: إن معالم الثقافة الهندية ترسخ جذورها في العصور القديمة، ويرجع تاريخها إلى بزوغ فجر التاريخ، وتدل الآثار المختلفة التي اكتشفت في داخل البلاد وخارجها كالتي عثر عليها ما قبل الميلاد بـــ ٣٠٠٠ سنة مع مصر وبـــ ١٢٠٠ سنة مع الخليج العربي، على تواجد تأثيرات الثقافة الهندية الفلسفات الروحية والعقلية، كما تثبت بالنقوش الثقافية لخامير الموجودة في كمبوديا أن آثارالثقافة الجذرية ومعالم الحضارة كانت توجد وكمبوديا منذ زمن قديم، ومع شيوع فلسفة البوذية ذات الأصل الهندي في العالم وخاصة مع الصين واليابان ودول جنوب شرق آسيا، فتوجد في هذه الدول آثار الديانة وعلم النجوم والسياحة واللغة والآداب والحياة الاجتماعية والسياسية الهندية، فكانت هناك البعثات الدينية والثقافية التي توجهت إلى البلاد النائية كالصين واليابان من جهة وإلى مصر وآسيا الصغرى من جهة أخرى، وكما كانت هناك العلاقات التجارية الوثيقة التي كانت تسوق رجال التجارة من الهنود إلى بلاد بيزنطية أو تسير بهم إلى البقاع الشرقية الجنوبية من آسيا ليعمروها أو ينشئوا فيها مراكز للثقافة الهندية.

وأما الصلات المشتركة بين الهند وإيران التي ترسخت دعائمها في العهد الإسلامي، فهي واضحة الملامح في جميع ميادين الحياة من التجارة والثقافة والسياسة والاقتصاد، وأظهر مثل لهذه العلاقة هي سيادة اللغة الفارسية واتخاذها مكانة اللغة الرسمية في الحكم الإسلامي على الهند، وهكذا ثبت الفضل للهند أنها قد ساهمت في دفع عجلة الثقافة العالمية إلى الأمام بمساهمات متنوعة وغذتها أحسن غذاء، وأنها أعطت اليونان والفرس والعرب النظريات العميقة التي أثرت في حياتهم وأدبهم وثقافتهم حتى اعترفت الدنيا بفضلها في العلم والحكمة وفي الفلسفة والثقافة الراقية.

(*) ينشر بالاتفاق مع شبكة ضياء للمؤتمرات والدراسات